

قصة جمل جابر.. وقفات تربوية (1-3)

بقلم : عبد الآخر حماد

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : (خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزوة ذات الرقاع من نخل على جمل لي حفيف ، فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جعلت الرفاق تمضي وجعلت أتخلف حتى أدركني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما لك يا جابر ؟ قال : قلت : يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا ، قال : أنخه ، قال فأنخته ، وأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أعطني هذه العصا من يدك ، أو اقطع لي عصاً من شجرة ، قال : ففعلت ، قال : فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخسه بها نخسات ، ثم قال : اركب ، فركبت ، فخرج والذي بعثه بالحق يواحق ناقته مواهقة⁽¹⁾ ، قال : وتحدثت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : أتبيعي جملك هذا يا جابر ؟ قال : قلت : يا رسول بل أهبه لك ، قال : لا ، ولكن بعنيه ، قال : قلت : فسمنيه⁽²⁾ يا رسول الله ، قال : قد أخذته بدرهم ، قال : قلت : لا ، إذن تغبني يا رسول الله ، قال : فبدرهمين ، قال : قلت : لا ، قال : فلم يزل يرفع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثمنه حتى بلغ الأوقية ، قال : فقلت : أفقد رضيت يا رسول الله ؟ قال : نعم ، قلت : فهو لك ، قال : قد أخذته ، قال : ثم قال : يا جابر هل تزوجت بعد ؟ قال : قلت : نعم يا رسول الله ، قال أثيباً أم بكرأ ؟ قال : قلت : لا ، بل ثيباً ، قال : أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك ! قال : قلت : يا رسول الله ، إن أبي أصيب يوم أحد ، وترك بنات له سبعاً ، فنكحت امرأة جامعة تجمع رعوسهن ، وتقوم عليهن ، قال : أصبت إن شاء الله ، أما إننا لو قد جئنا صراراً⁽³⁾ أمرنا بجزور فنحرت ، وأقمنا عليها يومنا ذاك ، وسمعت بنا فنفضت نمارقها⁽⁵⁾ قال قلت : والله يا رسول الله ما لنا من نمارق ، قال : إنها ستكون ، فإذا أنت قدمت فاعمل

(1) أي يسابقها ويعارضها في المشي لسرعته .

(2) من السوم وهو هنا أن يعرض المشتري ثمناً لما يريد شراؤه.

(3) موضع على ثلاثة أميال من المدينة

(5) النمارق جمع نمرقة وهي : الوسادة الصغيرة.

عملاً كَيْساً⁽⁶⁾، قال فلما جئنا صراراً أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجزور فنحرت
،وأقمنا عليها ذلك اليوم ،فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل ودخلنا ،قال:
فحدثت المرأة الحديث ،وما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت : فدونك
فسمع وطاعة، قال فلما أصبحت أخذت برأس الحمل ،فأقبلت به حتى أنخته على باب
رسول الله صلى الله عليه وسلم ،قال : ثم جلست في المسجد قريباً منه ،قال: وخرج
رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فرأى الحمل ؛فقال : ما هذا ؟ قالوا : يا رسول الله هذا
جمل جاء به جابر، قال : فأين جابر؟ قال : فدعيت له ،قال : فقال : يا ابن أخي خذ
برأس جملك فهو لك ،ودعا بلالاً ،فقال له : اذهب بجابر فأعطه أوقية ،قال فذهبت معه
فأعطاني أوقية وزادني شيئاً يسيراً ،قال : فوالله ما زال ينمي عندي⁽⁷⁾ ،ويرى مكانه من
بيتنا ،حتى أصيب أمس فيما أصيب لنا، يعني يوم الحرة⁽⁸⁾ ⁽⁹⁾.

(6) أصل الكيس العقل ،ولكن ذهب جمع من أهل العلم إلى أن المقصود بالعمل الكيس هنا الجماع ،منهم ابن حبان
كما في صحيحه (432/6) ،وأشار البخاري إلى أن المراد الحث على ابتغاء الولد كما في صحيحه : كتاب النكاح
،باب طلب الولد الحديث رقم (5245).

(7) أي أن هذا الشيء اليسير الذي زاده إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل عنده حتى فقده يوم الحرة ،
وفي البخاري (2309) أن هذه الزيادة كانت قيراطاً ،وأن جابراً قال : لا تفارقني زيادة رسول الله صلى الله عليه
وسلم ،فلم يكن القيراط يفارق جراب جابر بن عبد الله ،وفي رواية عند عند مسلم (كتاب البيوع) وابن حبان :
فكان في كيس لي ،فأخذه أهل الشام يوم الحرة .

(8) أي يوم وقعة الحرة وهي وقعة حدثت بسبب خلع أهل المدينة ليزيد بن معاوية سنة 62 ، فأرسل إليهم يزيد
جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المزني ،فاقتتلوا قتالاً شديداً انتهى بهزيمة أهل المدينة ،ثم أباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة
أيام ،فنتج عن ذلك شر عظيم وفساد عريض ،وقتل خلق كثير من أشرفها ،ووقعوا على النساء حتى قيل إنه حبلت
ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج فالله أعلم .(البداية والنهاية: 220/8 وما بعدها) .

(9) القصة أخرجها البخاري في مواضع من صحيحه منها ما في كتاب البيوع(2097) والوكالة (2309)
والشروط (2718) والجهاد والسير(2967) والنكاح(5245) ،ومسلم(715) في كتاب الرضاع باب
استحباب نكاح البكر ،وكتاب المساقاة باب بيع البعير واستثناء ركوبه ،وابن ماجه (2205) ،وابن إسحاق
واللفظ له كما في سيرة ابن هشام(216/3) وأحمد(372/3) ،(375/3) وابن حبان(6517) ،(6518) ،
(7143) .

نظرات تربوية

حول هذه القصة وما فيها من المعاني التربوية ستكون لنا بعون الله بضع وقفات منها ما يتعلق بصاحب الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم، ومنها ما يتعلق بأحوال الصحابة رضوان الله عليهم بصفة عامة، ومنها ما يتعلق بصاحب القصة جابر بن عبد الله رضي الله عنه بصفة خاصة .

أولاً : مع المعلم الأعظم صلى الله عليه وسلم

1- في هذه القصة يظهر جانب من جوانب العظمة في شخصية نبينا صلى الله عليه وسلم من حيث حسن سياسته للناس، وتأديبه لهم وتعليمه إياهم؛ فإنه مع كونه أعظم الناس هيبة في نفوس أصحابه، إلا أن ذلك لم يمنعه من التباسط مع شاب من صغار أصحابه؛ فيسأله عن شؤونه الخاصة، وينصحه بما يصلح من شأنه مع زوجته، ويحاول أن يسري عنه بعد ما لحقه بوفاة أبيه يوم أحد فيشتري منه جملة ويزيده في ثمنه ثم يرده عليه.

ولقد كان ذلك من سمات شخصيته المباركة صلى الله عليه وسلم؛ حيث كان صلى الله عليه وسلم أقوى الناس وأشجع الناس وأعظمهم هيبة ووقاراً، حتى قال عروة بن مسعود لقريش لما رجع من مفاوضة النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية : (أي قوم : والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله إن رأيت مليكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلّك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا تواضأ كادوا يقتتلون على وضوءه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يجدون النظر إليه تعظيماً له)⁽¹⁰⁾، ومع ذلك كله كان صلى الله عليه وسلم أكثر الناس ليناً وتواضعاً، فكان يخفض جناحه للمؤمنين كما أمره ربه عز وجل، وكان يسلم على الصبيان، ويمزح

(10) أخرجه البخاري (2731)، (2732) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم .

المساكين من أصحابه ، وإنَّ هذا كله لمن مظاهر كمال شخصيته صلى الله عليه وسلم التي لا يساويه فيها أحد من البشر ، ولقد أحسن الإمام ابن القيم حين لخص المظهر الذي ظهر فيه رسولنا صلى الله عليه وسلم بأنه مظهر الكمال الجامع بين صفتي القوة والرحمة ، حيث ذكر رحمة الله عليه أن موسى عليه السلام كان في مظهر الجلال ، ولهذا كانت شريعته شريعة جلال وقهر ، حيث أمروا بقتل نفوسهم وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر وغيرها من الطيبات ، وكان موسى من أعظم خلق الله هيبه ووقاراً ، وأشدهم بأساً وغضباً لله وبطشاً بأعداء الله ، وكان لا يُستطاع النظر إليه .

كما ذكر أن عيسى عليه السلام كان في مظهر الجمال ، وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان ، لا حرب فيها ولا قتال ، حتى إنهم ينسبون إليه في الأناجيل التي بين أيديهم أنه قال لهم : (سمعتم أنه قيل لكم عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً ، ومن سحرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين) (11) .

وفيها أيضاً : (سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيك وصلوا من أجل الذين يسيئون إليكم ويطردوكم) (12) .

وأما نبينا صلى الله عليه وسلم فكان في مظهر الكمال الجامع لتلك القوة والعدل والشدة في الله ، وهذا اللين والرافة والرحمة ، وشريعته أكمل الشرائع فهو نبي الكمال وشريعته شريعة الكمال ، وأمته أكمل الأمم ، وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات ولذلك تأتي شريعته بالشدة في موضعها وباللين في موضعه ، وبالعدل فرضاً له وإيجاباً ، وبالفضل ندباً إليه واستحباباً ، كقوله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) . [الشورى : 40] فهذا عدل ، (فمن عفى وأصلح فأجره على الله) ، فهذا فضل (13) .

(11) إنجيل متى : 38/5-41 .

(12) إنجيل متى : 43/5-44 .

(13) مدارج السالكين (2/457-459) مع زيادات وتصرف .

2- وفيه ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الجود والكرم ، فإن إن الذي فعله مع جابر هو كما يقول ابن الجوزي ((من أحسن التكرم، لأن من باع شيئاً فهو في الغالب محتاج لثمنه، فإذا تعوض من الثمن بقي في قلبه من المبيع أسف على فراقه كما قيل:

وقد تُخرج الحاجاتُ يا أم مالكٍ * نفائسَ من رب بهنِ ضنين

فإذا رد عليه المبيع مع ثمنه ذهب الهم عنه ، وثبت فرحه وقضيت حاجته، فكيف مع ما انضم إلى ذلك من الزيادة في الثمن)) (14).

وقد ورد في روايةٍ عند أحمد عن جابر قال : ((فلما أتيتهُ دفع إليّ البعير، وقال: هو لك، فمررت برجل من اليهود فأخبرته فجعل يعجب ويقول: اشتري منك البعير ،ودفع إليك الثمن ثم وهبه لك؟ قلت: نعم) (15).

ولليهودي أن يعجب من مثل هذا التصرف ويستغربه فأنى لقوم أشربوا في قلوبهم العجل، وكانوا أحرص الناس على الدنيا ومتاعها، أن يفهموا مثل هذا التصرف العجيب من رجل كان أجود الناس كما وصفه ابن عباس رضي الله عنهما (16).

3- وفيه حرصه صلى الله عليه وسلم على كل ما يديم العشرة بين الزوجين ،وبيانه لمكانة المرأة في الإسلام ،وحرصه على مشاعر النساء وما يصلح من شأنهن ،حيث أقام في صرار يوماً حتى تعلم نساء الصحابة بقدوم أزواجهن فتهيأ كل امرأة لزوجها ،ولذلك قال لجابر : (أما إنا لو قد جئنا صراراً أمرنا بجزور فنحرت ،وأقمنا عليها يومنا ذاك ،وسمعت بنا فنفضت ثمارقها)،وفي رواية (فلما قدمنا المدينة ذهبنا لندخل ،فقال: أمهلوا حتى ندخل ليلاً ،أي عشاء، كي تمتشط الشعثة ،وتستحد المغيبة).

(14) فتح الباري : (317/5).

(15) المسند : (303/3).

(16) أخرجه البخاري(6) ومسلم (2308) وأحمد(288/1).

وقد وردت أحاديث في النهي عن أن يطرق المسافر أهله ليلاً؛ فعن أنس رضي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يطرق أهله ليلاً ، وكان يأتهم غدوة أو عشية)⁽¹⁷⁾، وفي إحدى روايات حديث جابر مرفوعاً : (إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً)⁽¹⁸⁾.

وليس هذا النهي مخالفاً لقوله صلى الله عليه وسلم : (أمهلوا حتى ندخل ليلاً) ؛ لأن المقصود فقط هو عدم قدوم الرجل على أهله فجأة ، وذلك للعلة التي ذكرت في الحديث ، وهي أن تتمكن المرأة من تهينة نفسها لزوجها ، وهناك علة أخرى : وهي أن قدوم الرجل فجأة قد يكون فيه معنى التخون والشك في زوجته ، وقد وردت تلك العلة صريحة في إحدى روايات حديث جابر ولفظها : (نهى رسول الله أن يطرق الرجل أهله ليلاً ، يتخونهم أو يلتمس عثرتهم)⁽¹⁹⁾.

ولكن اختلف في قوله : (يتخونهم أو يلتمس عثرتهم) هل هو من قول النبي صلى الله عليه وسلم أم هو مدرج؟⁽²⁰⁾، وعلى كل حال فالمقصود أن لا يباغت الرجل أهله بالقدوم ، فأما إن كان قد أعلمهم بموعده قدومه فلا بأس أن يقدم عليهم في أي ساعة من ليل أو نهار ، قال الإمام النووي : ((ومعنى هذه الروايات كلها أنه يكره لمن طال سفره أن يقدم على امرأته ليلاً بغتة ، فأما من كان سفره قريباً تتوقع امرأته إتيانه ليلاً فلا بأس ، كما قال في إحدى هذه الروايات : (إذا أطال الرجل الغيبة) ، وإذا كان في قفل عظيم أو عسكر ونحوهم ، واشتهر قدومهم ووصولهم ، وعلمت امرأته وأهله أنه قادم معهم ، وأنهم الآن داخلون ، فلا بأس بقدومه متى شاء لزوال المعنى الذي نهى بسببه ، فإن المراد أن يتأهبوا ، وقد حصل ذلك ، ولم يقدم بغتة))⁽²¹⁾.

(17) أخرجه البخاري (1800) ومسلم (1928).

(18) البخاري (5244) ومسلم (715) كتاب الإمارة باب كراهة الطروق ليلاً (183).

(19) مسلم (715) كتاب الإمارة باب كراهة الطروق ليلاً (184).

(20) فتح الباري (340/9).

(21) شرح صحيح مسلم : (81/7-82).

ويؤخذ من الحديث أيضاً كراهة مباشرة الرجل للمرأة في الحالة التي تكون فيها غير منتظمة لئلا يطلع منها على ما يكون سبباً لنفرته منها⁽²²⁾ .

كما أن في قوله صلى الله عليه وسلم لجابر : (هلا تزوجتها بكرةً تلاعبها وتلاعبك) وفي رواية (تضاحكك وتضاحكها) ، استحباب ملاعبة الرجل امرأته وملاطفته لها ومضاحكتها ، وفي ذلك تعليم وإرشاد إلى كل ما يديم المحبة والتواد بين الزوجين ، وفيه الحرص على مشاعر المرأة وإشعارها بقيمتها ، وفيه أبلغ رد على أهل الزيغ والضلال الذين يزعمون أن الإسلام قد غمط المرأة حقوقها ، وأن جاهليتهم المعاصرة هي التي كرمت المرأة وأعطتها حريتها وأعلت من شأنها .

للحديث بقية بإذن الله

(22) انظر : فتح الباري : (340/9).